



عاشق التراث وفارس التحقيق

حمد بن ناصر الدخيّل











الطبعة الأولى

١٤٤٥هـ/٢٠٢٣م

عاشق التراث وفارس التحقيق
حمد بن ناصر الدخيّل

الإعداد والمراجعة

د.عبدالله بن عبدالرحمن الحيدري

الطبعة الأولى

١٤٤٥هـ/ ٢٠٢٣م

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الحيدري، عبدالله بن عبد الرحمن
عاشق التراث وفارس التحقيق حمد بن ناصر الدخيِّل/ عبدالله بن عبد الرحمن الحيدري، ط١، الرياض، ١٤٤٥هـ
٢٢١ص ؛ ١٧×٢٤سم
ردمك: ٩-٧٢٣٦-٠٤-٦٠٣-٩٧٨
١- الدخيِّل، حمد بن ناصر ٢ـ الأدباء السعوديون أ. العنوان
ديوي ٩٢٨.٠٣١ ١٧١٩/ ١٤٤٥

رقم الإيداع : ١٧١٩/ ١٤٤٥
ردمك: ٩-٧٢٣٦-٠٤-٦٠٣-٩٧٨

يطلب هذا الكتاب من:

جمعية الأدب والأدباء بالمدينة المنورة







سردية الذاكرة في كتابات الدكتور حمد الدخيّل

د.مصطفى الضبع

كلية الآداب – جامعة الإمام عبد الرحمن بن فيصل

المملكة العربية السعودية

تمثل الكتابة ذروة استخدام الذاكرة واستثمار كامل طاقتها، فالعودة للمخزون اللغوي لاختيار مفردة، هو استثمار للذاكرة في جانبها اللغوي، والعودة للذاكرة لتشكيل صورة هو في حقيقته عودة للمخزون الصوري أو المخزون البصري من الصور التي يعمل الخيال على تشكيلها أو توليفها من شتات الصور المختزنة في الذاكرة الإنسانية، والبحث عن معنى محاولة للوقوف على أدق المعاني المدركة، وإنتاج أسلوب له طابعه الخاص هو نوع من استكشاف النماذج العليا في الأساليب ذات البلاغة، وهو يترجمه فعل التناص في الكتابة بوصفه تفعيلاً للذاكرة الإنسانية لتعالق النصوص على مدار الكتابة.

وكلما اتسعت حصيلة الإنسان، وتعددت تجاربه، وتعمقت مداركه، وانفتح وعيه على العالم بصورة أوسع، كان من حصيلة ذلك ذاكرة تتصف أول ما تتصف بالثراء وهو ما ينعكس بالضرورة على التأليف والكتابة، وصناعة الأساليب وتنوعها، وقدرة صاحبها على إنتاج كتابة فارقة أو كتابة لها تميزها عن غيرها من الكتابات، إذ يكون لدى الكاتب القدرة على أن يؤلف بين المتضادات أحيانا أو ينتج نصوصا لها قدرتها على تفعيل ذاكرة المتلقي الذي يكون بدوره في حالة حركة دائبة بين غابة من الأساليب والصور بفعل الكتابة ومتابعة دوائرها المختلفة.

الاستعداد للكتابة في موضوع ما هو عملية تنظيم لعمل الذاكرة أولا، وتمشيطها استخراجا لما هو مطلوب لصناعة كتابة لها طابعها الخاص، إنها تفعيل للذاكرة عبر عمليتين:

- شحن الذاكرة باستدعاء مخزونها السابق لحاجة النص المكتوب إليه، وهو اشتغال للذاكرة القديمة وتفعيل لها.
- شحن الذاكرة القريبة بالقراءة في موضوع الكتابة أو الموضوع الذي نتأهب للكتابة فيه.

وهو ما يعني أن الكتابة تفعيل لذاكرتين: قديمة راسخة بمكوناتها، وجديدة يشحنها الكاتب لفعل راهن قبل أن تأخذ طريقها للذاكرة الأولى، والذاكرتان تلتقيان في الكتابة، حيث كل كتابة هي نقطة التقاء بين الذاكرتين، فقد نوضح مشهدا راهنا بصورة مستدعاة من الذاكرة، وقد نفسر حدثا سابقا بشحن الذاكرة بصور حديثة منتقاة بعناية لتوضيح السابق وقوفا على تفاصيله التي تشكل نطاق عمله وقدرته على إنتاج دلالته.

بالطبع تتدخل عوامل عدة لتشكيل ذاكرة الكاتب وثراء منتجها: الدراسة، القراءة، البحث العلمي، السفر، تعدد أماكن الإقامة، العلاقات الإنسانية المتنوعة، الارتباط بالأماكن، والبشر، وجميعها تصب في وعي كاتبها منتجة مجالها الحيوي لصناعة شخصيته الأدبية والفكرية، وهو ما يمثل مجموعة من العوامل الواضحة في تجربة الكتابة عند الدكتور حمد الدخيّل.

في تجربته تتسع مساحة الحركة التي أدركها الأستاذ الدكتور حمد الدخيّل، متنقلا بين الأمكنة والأزمنة ومعايشا الأشخاص والأحداث، ومشاركا في الحياة الإنسانية على عمومها، والحياة العلمية والجامعية على خصوصها، وهو ما يؤكد

تنوع التجربة حين تثمر كتابة لها قدراتها الخاصة ولها تفاصيلها الدالة ولها مرجعياتها الفكرية ومنهجيتها العلمية وأسلوبها الفني والجمالي.

وفي سياق تجربته في الكتابة يمكن لقارئ الإنتاج أن يكاشف تنوع الكتابة وثراء مضامينها وتوجهاتها واتساع مساحة حركتها، وهو ما يكشف عنه الوقوف على قائمة أعماله التي تتنوع بين مجالين أساسيين:

الأول: مجال التحقيق: ويمثله مجموعة من الأعمال:

١- فَسْر المولى وحصر معانيه والكشف عن حقيقة ما قيل فيه، لأبي الفتح ناصر بن عبد السيِّد المطرزي، دراسة وتحقيق ١٩٩٢م.

٢- بيان الإعجاز في سورة «قل يا أيها الكافرون» لأبي الفتح ناصر بن عبد السيد المطرزي)، دراسة وتحقيق ١٩٩٢م.

٣- التفضيل بين بلاغتي العرب والعجم للعسكري، تحقيق، ١٩٩٧م.

٤- شعر عبد الله بن أيوب التيمي، جمع وتحقيق وشرح ٢٠٠١م.

٥- مرشد الخصائص ومبدي النقائص في الثقلاء والحمقى وغير ذلك، تأليف عثمان بن بشر، تحقيق ٢٠١٠م.

- **الثاني**: الكتابة الثقافية، مؤلفات تخدم الثقافة العامة، وتنتج دائرة أوسع من دائرة التأليف العلمي:

١- من أعلام الحضارة الإسلامية، ١٩٩٤م.

٢- اختصار الزمن: ملامح عن مسيرة المملكة ونهضتها ومنجزاتها ويومها الوطني، وقضايا تربوية واجتماعية (١٩٩٧م).

٣- الشوط الأول: مقالات وآراء في التاريخ والأدب والنقد ٢٠٠١م.

٤- الشوط الثاني في الأدب والنقد واللغة ٢٠٠٤م.

٥- الرياض درة الصحراء ٢٠٠٤م.

٦- على نفسها جنت براقش: جناية صدام على شعب العراق والأمة العربية باجتياحه الكويت، ٢٠٠٥م.

٧- نظرات في التاريخ والحضارة والتراث ١٩٩٨م.

الثالث: الكتابة في اللغة والأدب

١- قضايا وتجارب في تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها ١٩٩٤م.

٢- مقالات وآراء في اللغة العربية ١٩٩٤م.

٣- حمزة بن بيض الحنفي «....- نحو ١٢٦هـ»: حياته وشعره، ١٩٩٧م.

٤- خواطر في الفكر والثقافة واللغة والأدب ١٩٩٩م.

٥- في الأدب السعودي مقالات وبحوث ١٩٩٩م.

٦- دراسات ومقالات في الأدب العربي١٩٩٩م.

٧- من أعلام الكتابة الفنية والشعر في الأدب العربي ١٩٩٩م.

٨- في الأدب العربي الحديث ٢٠٠٠م.

٩- شعر شواعر بني حنيفة في الجاهلية والإسلام ٢٠٠٠م.

١٠- الأدب السعودي بأقلام الدارسين العرب (بالاشتراك) ٢٠٠٠م.

١١- آراء المنفلوطي في شعراء وكتّاب عصره ٢٠٠٥م.

١٢- في خصوصية الأدب ومنهجه ٢٠٠٨م.

الرابع : الكتابة الإبداعية

١- لله ما أخذ وما أعطى (قصة) ١٩٩٥م.

٢- ثلاث سنوات في بلاد النخيل ٢٠٢٠م.

وهو ما يعني تشكل تجربة الكاتب وفق أربع دوائر متداخلة لم تكن كل منها مجرد تجربة للخروج إلى دائرة جديدة وإنما يؤكد رسوخها وكونها جانبا أصيلا في الإنتاج امتدادها لتشكل قطاعا في التجربة، ويعد كم الإنتاج بالأساس علامة على الإنتاج ورسوخ الفكرة المفضية إليه وكأننا إزاء أربعة كتّاب يقدمون تجربتهم / تجاربهم المتنوعة، وهو ما يعني ثراء تجربة تستمد طاقتها من أربع تجارب كبرى يليق بها أن تقدم سرديتها الخاصة وأن تؤطر تجربة معمقة، حيوية، متجددة، لها تأثيرها في الأجيال على توالي أزمنتها لقدرتها على طرح جديدها ومنح ثمارها.

السرد من حيث هو نظام للكتابة لا يكون مقصودا لذاته بقدر ما هو مقصود لغيره لأداء وظيفة جمالية، والسرد من حيث هو تصوير مساحة من التنظيم لا يمتلكها غيره من الفنون، ولا تحقق الكتابة منطقيتها القصوى بغير السرد.

وقد اختبر الكاتب السرد وفي عدة طرائق فجاء وفيا بمشروع يليق بنا أن نقرأه في سياق سردية مكتملة الأركان، متعددة الوجوه، دالة على صاحبها، كما تدل على قدرات فنية لذات لها شغفها الخاص بالحياة.

وفي تجربة الدكتور حمد الدخيّل مساحتان للسرد:

١- السرد غير المباشر، أو استثمار السرد بمعنى الإحكام[(١)]، وهو ما يتحقق في مؤلفات الدكتور حمد الدخيّل باستثناءات قليلة، حيث تضيق مساحة الحكايات مفسحة المجال للكتابة العلمية، وللغة البحث العلمي والتأليف في مجال الأدب والنقد والثقافة والمجتمع، يرفد هذا الجانب بعض الدراسات المعنية بشخصيات كان على الباحث أن يتتبع سرديتها الخاصة لتقديم تجربتها الشعرية، ومثالها الأبرز في ذلك مؤلفاته: «حمزة بن بيض

(١) الإحكام والحبكة واحد من المعاني القرآنية للسرد، الشاهد فيه قوله تعالى في سورة سبأ / ١١ ، ﴿ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ .

الحنفي»، و«من أعلام الكتابة الفنية والشعر في الأدب العربي»، و«شعر شواعر بني حنيفة في الجاهلية والإسلام».

٢- **السرد المباشر**: حيث يبدو السرد متحققا بقوانينه وعناصره (الحدث- الشخصية - الزمان - المكان)، في نموذجين واضحي المعالم: قصته الوحيدة «لله ما أخذ وما أعطى»، وهي من أوائل مؤلفاته (مما يعني أصالة الإبداع الذي جار عليه النقد والبحث العلمي والعمل الأكاديمي فتوارى سنوات طويلة قبل أن يعود للظهور في نموذجه المتفرد كتاب «ثلاث سنوات في بلاد النخيل».

أولا : السرد غير المباشر:

وهو سرد يطرح نفسه على وعي متلقيه عبر علامتين أساسيتين:

- الإحكام الذي تفرضه طبيعة البحث العلمي وصرامته المنهجية.
- بروز واحدة من علامات السرد أحادية الحضور، حيث يكون لظهور العلامة السردية أثره في تشغيل خيال المتلقي توصلا لفعل العلامة أو أثرها، أو تلك المفردات التي ترتبط بها، في كتابه «في الأدب السعودي مقالات وبحوث» يبرز عنصر المكان (السعودية) بوصفه علامة سردية ثابتة في مقابل حركة الزمن، حيث تتنقل المقالات والبحوث عبر الزمن والأشخاص والقضايا دون مغادرة المكان حيث تبقى في دائرته ملتزمة به، والكتاب الذي يتضمن اثنين وأربعين موضوعا يتنوع بين المقالة العلمية والبحث والمقالة الصحفية وغيرها من أشكال الكتابة، وهي موضوعات تقترب أو تبتعد عما تطرحه من قضايا دون مغادرة الفضاء السعودي، وفي إطار هذا الفضاء فإنها تطرح علامات أخرى لها طبيعتها السردية، فالكاتب يطرح عددا من العلامات الأخرى ممثلة في:

- الأشخاص: الحديث عن الملك عبد العزيز[١] وحمد الجاسر[٢]، بوصفهما نموذجين إنسانيين مطروحين على وعي المتلقي عبر الكتابة ولكل منهما سرديته الكاملة خارج نطاق الكتابة ولكنها مطروحة على وعي المتلقي عبر السؤال عن كنه كل منهما، وحيث المتلقي حين يطالع اسم الشخصية فإنه يكون في موقف من موقفين: العارف بالشخصية وسرديتها (حكايتها) فينطلق إلى دلالة حضورها، أو غير العارف بالشخصية فيكون عليه تحصيل المعرفة التي لا تحصيل للدلالة دونها وفي كلا الحالين فالمتلقي واقف في منطقة سردية تمثل منطلقه لاستكشاف عالم الكتابة وإدراك تفاصيلها واستشراف مراميها.

في هذه السردية تتسع دائرة العناصر المكونة لها، ولا تتوقف عند كتاب واحد من مؤلفات الدكتور حمد وإنما تتسع لتشمل معظم مؤلفاته، ومنها على سبيل التمثيل:

١- آراء المنفلوطي في شعراء عصره وكتابه في مصر، وهو كتاب يضم قرابة خمسين شخصية من شعراء عصر المنفلوطي يمثل كل منهم عنصرا سرديا يكون بمثابة المدخل إلى سرديته الخاصة حين تتضام لها بقية التفاصيل، فكل شخصية بؤرة سردية وكل اسم يفتح نافذة لاستكشاف سردية الشخصية وعالمها بكل تفاصيله وكل علاقتها بالشخصيات المعاصرة عبر سؤال الماهو عن الشخصية وكل متلق مؤهل لاستيعاب الشخصية منطلقا من السؤال الأول: من هذا ؟ وما حكايته؟ والمتلقي يكون في حالة اختزان جانب من حكاية الشخصية مسبقا أو يسعى

(١) حمد بن ناصر الدخيّل: **في الأدب السعودي، مقالات وبحوث** – نادي جازان الأدبي ١٩٩٨م، ص ٩٤، وما بعدها.

(٢) السابق، ص ١٢٠.

لاكتشاف سردية الشخصية وحكاياتها لاحقا؟ وكل تفصيلة مدركة من حكاية الشخصية تتضام مع غيرها لتشكل سردية الشخصية وكل سردية لشخصية تتضام مع سردية شخصية أخرى منتجة عددا من السرديات المتعددة لتشكل في النهاية سردية كبرى تخص عصرا بكامله.

ثانيا: السرد المباشر:

وفيه يكشف السرد نفسه صريحا دون مواربة، وتفرض الذاكرة سطوتها عبر تقنيات السرد وأشكاله الصريحة، وقد بلغت السردية ذروتها في كتابه «ثلاث سنوات في بلاد النخيل»، فالكتاب يتخذ عنوانه منحى سرديا يجمع بين ثلاثة مكونات ظاهرة ومكون خفي:

- **مكون زماني**: ثلاث سنوات محددة من ١٩٧٠ إلى ١٩٧٣م.
- **مكون مكاني**: بلاد النخيل والمقصود بها محافظة الأحساء التابعة للمنطقة الشرقية.
- **مكون شيئي**: النخيل بوصفها علامة شيئية دالة على مكانها، ومكتنزة ثقافة المكان، وعلامة حضارية على الثقافة العربية قديمها وحديثها، وأبعادها الزمانية المتوالية عبر العصور.
- **مكون حدثي**: ليس مطروحا بصورة مباشرة وإنما يطرحه العنوان بصورة تخايل أفق التوقع عبر السؤال (ماذا حدث في هذه السنوات؟) كأن العنوان بمكوناته السابقة (الثلاثة الظاهرة) بمثابة المبتدأ والنص بما يتضمنه من أحداث يكون خبرا له، مما يوجد علاقة دالة قائمة بين المبتدأ والخبر، وهو ما يجعل من المكونات مساحة تحفيز للمتلقي للوقوف على التفاصيل الدالة في سياق الكتاب الذي يقع في سبعة عشر فصلا يجمع بين الطول والقصر، وهي عملية انتقائية يخضع المؤلف نصه لها متحركا بين كثير من التفاصيل المختزنة ليقدم جانبا دالا منها ليس لأنه متاح للذاكرة ولكن لأن عملية انتقاء

جادة اعتمدها المؤلف كاشفا عن رؤيته للعالم خلال زمن المعايشة للمكان، مما يعني أنه يسقط جانبا لا يراه دالا أو يوازن بين ما يراه على قدر من الأهمية من وجهة نظره.

ويمكن لمتتبع التفاصيل أن يدرك طبيعة الاختيار أو بلاغة الكاتب في اختيار ما يراه أكثر قدرة على التعبير عن المكان زمن المعايشة مما يعني أن الذاكرة لم يقف دورها عند الاختزان وإنما كان لها دورها في الانتقاء والاختيار والمفاضلة كذلك.

ديمقراطية السارد:

يحدد السارد موقعه من سرديته، معلنا عن زاوية رؤيته، كونه ساردا عليما يؤكد فعل الذاكرة الذي نستدل عليه بمقدمة الكاتب الذي يحدد منطقة اشتغاله، مانحا بعض معاصريه فرصة المشاركة في السرد كونهم شهودا عليها: «**أصل هذا الكتاب محاضرة ألقيتها في نادي الأحساء الأدبي في مساء يوم الأربعاء ١٣ رجب عام ١٤٣٧هـ الموافق ٢٠ أبريل (نيسان) عام ٢٠١٦م. وصحبني في رحلة من الرياض في اليوم نفسه الأخ الدكتور محمد بن عبدالرحمن الربيّع الذي علق على المحاضرة، والأخ الدكتور عبد الله بن عبد الرحمن الحيدري الذي قدم المحاضرة**»[1]، كاشفا عن:

- ضمير المتكلم.
- تحديد وقت السرد.
- تقديم توثيق على الفكرة الأولى للكتاب.

غير أنه يكشف بعد قليل عن فعل الذاكرة دون الاكتفاء بمفردة ذكريات التي وردت في العنوان الشارح على غلاف الكتاب، وهو ما يؤكده في مقدمة الكتاب

---

(١) د. حمد بن ناصر الدخيّل : ثلاث سنوات في بلاد النخيل (١٣٩٠-١٣٩٣هـ / ١٩٧٠-١٩٧٣) ذكريات ومشاهدات – نادي الأحساء الأدبي، ٢٠٢٠، ص ٥.

بصورة صريحة ودالة: «أما مادة الكتاب فاستقيتُ أكثرها من الذاكرة التي ما زالت تحتفظ بذكريات غالية عن الأحساء وأهلها، يضاف إلى ذلك ما كنت أدونه في مذكرات يومية كحديثي عن مرض الكوليرا الذي غزا المنطقة آنذاك، وتخلصتْ منه سريعًا بفضل التطبيق الصارم للوسائل الصحية؛ يَرْفَدُ ذلك ما كتبته من أخبار وذكريات في دفاتر التقويم مسجلة بتواريخها الدقيقة وما بقي من ذلك أخذته من المصادر والمراجع المثبتة في نهاية الكتاب»[1]، وهو بدوره ما يكشف عن ثلاث سمات أساسية:

- التأكيد على فعل الذاكرة المدعم بالوثائق والتواريخ، وهو وعي مبكر من الكاتب وتفكير مستقبلي جعله يسجل ما سيعود إليه بعد أكثر من نصف قرن وقد أحسن استثماره في موعده المناسب.
- التحكم في السرد كونه يسرد عن زمن ماض يأخذ إليه متلقيه ويكون هو الشاهد عليه والممسك تفاصيله.
- كونه يعتمد التوثيق البشري والعلمي، فهو حين يحدد مكانه (الأحساء)، وزمانه السنوات الأولى من زمن السبعينيات فإنه يمنح بعض متلقيه أن يكونوا شهودا على ما يقص مستثمرا جانبا من ديمقراطية الفعل السردي حين يشرك الآخرين ويحكي ما يعرفه بعضهم وهو ما يؤكد وعي الذاكرة أو ما يجب أن تكون عليه من وعي حذر فما يسرده سيكون مساحة مراجعة من قبل الآخرين.

السارد العائد:

متحركا بين قطبين سرديين ينجز السارد عمله، السارد المقيم زمنا في المكان ثم غادره ليعود إليه عبر الذاكرة، مما يدخله في نطاق السارد العائد الذي من أهم سماته

(١) ثلاث سنوات في بلاد النخيل، ص ٥.

العودة لمكان الإقامة السابقة متأثرا بفارق التوقيت الذي يحدث أثره في رؤية السارد مما يجعله في حالة تحفيز واستنفار للذاكرة طوال الوقت فهو في حالة مقارنة مثلا بين ماكان سابقا وهو ما قائم اليوم، ثم هو يعتمد على ذاكرة الآخرين أحيانا حين يستفسر عما حدث لفلان مثلا أو ماحدث للمكان الذي كان هنا لكن اعتماده الأكبر عن الذاكرة بوصفها اللاعب المؤثر في طرح المكان في زمن ماض، أو فيما فات من أحداث يتحكم السارد في طرحها عبر فعل الذاكرة، مستهدفا إحكام قبضته على عملية السرد بوصفه الممتلك معطيات المكان ومخزن الذاكرة.

السارد يعود مرتين: مرة عبر العودة للمكان وهي مفجر لإنتاج النص المسرود (الكتاب)، والعودة الثانية كانت أوسع زمنا بوصفها محاولة لاستيعاب ثلاث سنوات من زمن مضى لا شاهد عليها مثل شهادة الذاكرة وفعلها وطاقاتها المعتمدة على خبرات الباحث المدقق الخبير بما يحتفظ وكونه يدرك أن الذاكرة قد تخون فإنه يعتمد على التدوين مما يجعل ذاكرته تتنوع بين:

- ذاكرة عقلية بما يكتنزه الذهن.
- ذاكرة ورقية تقوم على التدوين، وهي مساحة من الوعي تميز الكاتب الباحث الذي لا يستنيم للذاكرة وخداعها.

السارد العائد يأخذنا إلى مساحته التي انفرد بها فهو يعيش مالم نعشه معه وقت المعايشة ولكنه يقيم عالما موازيا أو عالما جديدا نراه اليوم بعد سنوات المعايشة وهو ما يعني أن السارد يملأ فراغ التلقي بطرح منتج ذاكرته بوصفه منتجا معاصرا، مفعلا عصرية التلقي، فالمتلقي حين يتابع سردية الكاتب ينتقل إلى زمن ماض يراه بعيون عصرية، ويرى الكاتب ساردا منفردا بمعرفة المكان وما يضمه من بشر وأحداث وتفاصيل مغايرة تعمل على بث قدر كبير من التشويق.

ذاكرة الباحث:

لا يكتفي السارد بسرد التفاصيل لمجرد السرد، حيث السرد تقنية وليس هدفا في ذاته وإنما هو مقصود لغيره، فالسارد يقدم زادا معرفيا ومعلوماتيا مستثمرا فعل ذاكرته، ومعتمدا على مدونته وملاحظاته التي كان لوعي الباحث دوره الكبر في تنشيطها، فما كان له أن يسجل من الملاحظات حال معايشته المكان إلا بفعل وعي الباحث ورؤية المحقق وصرامة المنهج العلمي في حرصه على تحقيق الأمانة العلمية، وتقديم سرديته المتميزة بوعي الباحث، «ذكر لي ذلك الزميل محمد أحمد الملا في منزل الأخ الدكتور نبيل بن عبد الرحمن المحيش ليلة الجمعة ٢٦/ ٧/ ١٤٣٩هـ الموافق ١٣/ ٤/ ٢٠١٨م وكان دعانا لمأدبة عشاء مع الأخ الدكتور محمد الربيّع، والأخ الدكتور عبدالله الحيدري، وسعدنا بلقاء تلميذي الشيخ محمد بن عبدالرحمن بن حسين آل إسماعيل، وبالأخ الدكتور عبد الإله بن محمد بن أحمد الملا الذي سبق أن كَرُمَ بإهدائي ثلاثة كتب من مؤلفاته حينما زرنا مدرسة القبة الشرعية في الكوت مع وفد دارة الملك عبد العزيز بمناسبة إقامة ندوة المؤرخ حسين بن غنام (١١٥٢– ١٢٢٥هـ- ١٧٣٩– ١٨١١م) مساء الثلاثاء ٤/ ٣/ ١٤٣٧هـ الموافق ١٥/ ١١/ ٢٠١٥م، والكتب هي: مدرسة القبة الشرعية في الأحساء خلال أربعة قرون، وقضاة الأحساء خلال ستة قرون من عام (٨٣٠ـ١٤٠٠هـ)، وتاريخ التشريع الإسلامي. وكنا نزور الأحساء بمناسبة انعقاد مهرجان جواثى الثقافي الخامس الذي أحياه نادي الأحساء الأدبي في ٢٥ – ٢٦ رجب ١٤٣٩هـ الموافق ١١ – ١٢ أبريل (نيسان ٢٠١٨م. وكان موضوع المهرجان العام (التنشئة الأدبية: الأبعاد الثقافية والوطنية، وأسهمت فيه ببحث عنوانه (أثر التنشئة الأدبية في تكوين الأديب ثقافياً وفكرياً: الجاحظ نمودجا»[1].

---

(١) ثلاث سنوات في بلاد النخيل، ص ٢٩.

لقد ألزم الباحث نفسه بمنهج علمي يفرض عليه التوثيق لما يطرح وهو ما يبرزه تعدد التواريخ ودقتها وقدرتها على توثيق زمني دال، كما يعطي الفرصة لمن عايش الحدث أن يضيف إليه تأكيدا وأن يمنح النص قدرا من القيمة لما يتضمنه من علاقات وشخصيات وأحداث كان لها تأثيرها في المكان المسرود.

لا يقبل الباحث سوى التدقيق وتغذية السرد بما يثريه، فالمادة العلمية المتاحة قابلة للتقديم في إطار جمالي من شأنه أن يحفز متلقيه للتعلم، ليس فقط بوصفه مادة علمية ولكن عبر متابعة فعل السارد وقدرته على استثمار ما يملك من زاد معرفي، وحيث تصرفه في المادة يكون بمثابة المرشد للمتلقي الباحث حين يكون عليه حسن التصرف في مادته.

إن صرامة الباحث فيما يعرض تجعله لا يستسلم لانثيال الذاكرة وما يمكنها أن تفرضه من إرادتها غير المنظمة التي قد تتعارض مع صرامة المنهج العلمي؛ لذا فإن الذاكرة هنا ذاكرة علمية نجح الباحث في تفعيلها وقيادتها بصورة تحسب له ولما يمتلكه من خبرات بحثية ومعرفية.

جيوب السرد:

منتهزا فرصة السرد يقدم السارد مساحة معرفية عبر تقنية الاستطراد الدال، مثريا التلقي، ومضيفا إلى متلقيه الذي يكون في وضعية من وضعيتين:

١- وضعية العارف بما يقرأ فيزداد تأكيدا وتجديدا لمعارفه.

٢- وضعية غير العارف، فينضاف لوعيه ومعارفه ما يجب عليه أن يعرفه.

وهي تقنية يجيد الكاتب توظيفها عبر استطرادات تتكرر في سياق النص، تكون بمثابة الخلجان أو الجيوب السردية التي تمثل منعطفات جانبية يأخذنا الكاتب فيها إلى عملية تقميش سردي يوسع فيها من مدارك متلقيه بقدر يسمح له ألا ينحصر في إطار السردية الخاصة بالمكان المسرود.

ومن نماذج ذلك حين يتحدث عن إحدى الشخصيات (محمد بن حسن الدريعي) الذي أهداه كتابا عن طاغور يروح يقدم طرحه المعرفي الخاص بالشاعر وكأنه يخلق فرصة الإضافة المعرفية لمتلقيه:

«وهو موهوب في الرسم والخط، ويهوى القراءة. أهداني مرة كتاب روائع طاغور في الشعر والمسرح، نقله إلى العربية الدكتور بديع حقي. ورابندرانات طاغور شاعر هندي عالمي، ولد في٦/ ٥/ ١٨٦١م، وتوفي في ٨/ ٨/ ١٩٤١م، مُنح جائزة نوبل في الأدب عام ١٩١٤م، وهو أول شرقي يحصل على هذه الجائزة. وصفه غاندي: بأنه منارة الهند. ولم يكن شاعراً فقط، بل كان رساماً وفناناً تشكيليا. زار مصر عام ١٩٣٦م، وألف العقاد مع طه حسين وآخرين كتاب: شاعر الهند را بندرانات طاغور نشر في القاهرة عام ١٩٦١م»[(١)].

لقد انتهز الباحث الفرصة لتقديم مساحة معرفية موسعا فيها دائرة المعرفة، فلم يكتف مطلقا بمجرد سرد الوقائع وإنما عمد إلى استثمار الفرصة لتقديم معرفة دقيقة بكاتب ربما لم يكن معروفا وقتها، كما أنه يعمل على توسيق أفق التلقي دون حصر متلقيه في دائرة مكانية.

شبكة المعارف الإنسانية:

يقدم السارد نفسه عبر الآخرين، ومعهم وبهم، فهو لا يكتفي بطرح ذاته كونه منعزلا، فردا في سياق مجتمع إنساني هو بمعزل عنه، وإنما هو وهو ما يتم عبر فعلين متواليين:

- فعل الطرح عبر طرح الكاتب مجموعة الأسماء الواردة في السردية مما هم معروفون أو غير معروفين واضعا متلقيه في موقف من موقفين: المعرفة أو عدم المعرفة بهؤلاء.

---

(١) ثلاث سنوات في بلاد النخيل، ص ٢٠.

- فعل الاستكشاف وهو فعل التلقي الذي يكون في موقف غير العارف مما يكون للسردية دورها في تحفيزه للوقوف على عالم الشخصيات المسرودة، منتجا ذلك شبكة من العلاقات الإنسانية التي يكون لكل واحد منها سرديته الخاصة، فكل اسم مذكور هو مفتتح لسردية أخرى، أحيانا يفتح السارد شهية متلقيه دافعه للاكتشاف والبحث حين يعرج على الشخصية عارضا لبعض المعلومات عنها أو محددا وظيفتها أو مقدما مساحة معرفية عن دورها المؤثر.

ينضد السارد فعله بتقديم عدد كبير من الشخصيات المتناثرة في دروب حياته المقترنة بالمكان المسرود، مميزا مجموعة العمل بالتقديم الدال لمجموعة العمل، فراح يقدم قائمة من العاملين في معهد الأحساء ضمت سبع عشرة شخصية محترزا بعدها من النسيان بالإشارة «وربما نسيت آخرين فأنا أكتب الآن من الذاكرة»[١]، واضعا الأمور في نصابها الصحيح، ذكر الأسماء بالكامل مانحًا الآخرين حقوقهم دون تمييز بين رئيس ومرؤوس، ومنبها لعمل الذاكرة تحرزا من نسيان قد يكون وقعا في فعل التذكر، كما يمنح الآخرين حق الحضور في مساحته السردية فإذا كان لبعض الشخصيات حضورها المسجل في كتابات أخرى فإن بعضها سينفرد عمل الباحث بتسجيلها ولن يظهر اسمها في غير سرديته، مما يعني جانبا إنسانيا لدى الكاتب الذي لم يتعامل مع الآخرين بحيثية غير الحيثية الإنسانية.

حضور الوطن:

كان للوطن نصيبه الكبير في سردية الكاتب الذي لم يقتصر عمله على رصد دائرة الأصدقاء ووصف تفاصيل المكان وحياة الآخرين من المقربين وإنما عمد إلى توسيع دائرة عمله عبر الوقوف على دائرتين متداخلتين يمثل مجموعهما وعيه بالوطن واستحضاره في سياق السردية:

---

(١) ثلاث سنوات في بلاد النخيل، ص ٢٥.

١- سردية الذات / سردية الوطن:

من سرديتين يضفر السارد سرديته: سردية الذات في حركتها عبر المكان والزمان، وسردية الوطن بوصفها مظلة للذات وغيرها، والكاتب يجمع بين الاثنين في جديلة سردية جعلت متلقيه يقف على الأعراف بين السرديتين دون الفصل بينهما، ودون اعتبار واحدة منهما تتباعد عن الأخرى، وفي كلا الحالين فالسارد يعمد إلى الانتقاء مما هو واقع في دائرة اشتغاله واهتمامه بتفاصيل اللحظة التاريخية التي عايشها وتمثل مساحة حركته ومدار وعيه الثقافي والعلمي والإنساني على حد سواء.

وقد زين بها الكاتب سرديته مؤرخا لوجه آخر من وجوه التاريخ الوطني، ومكتنزا عددا من الأحداث الشاهدة على تطور المجتمع السعودي، ومن أبرز النماذج على ذلك تسجيله «افتتاح الملك فيصل – رحمه الله- مشروع الري والصرف بالأحساء : «في يوم الاثنين١١/ ١/ ١٣٩١هـ الموافق ٢٩/ ١١/ ١٩٧١م، قدم الملك فيصل - رحمه الله - إلى الأحساء؛ لافتتاح مشروع الري والصرف، راسما صورة مشهدية للمناسبة ومتابعا تطور الوطن وصعود شخصيته عبر الزمن: «وبعد مغرب يوم الثلاثاء ذهبنا إلى قصر الإمارة حيث يقيم الملك، وسلمنا عليه، كان وفدنا يتكون من مدير المعهد ومدرسيه ورأينا القاعة الواسعة غاصة بوفود المسلمين والمهنئين بسلامة وصوله إلى الأحساء، وقد اقتعدوا الكراسي يستمعون إلى حديث الملك غادرنا المكان قبيل أذان العشاء، وفي يوم الأربعاء ١٣/ ١/ ١٣٩١هـ الموافق ١/ ١٢/ ١٩٧١م افتتح الملك المشروع، وحضرنا الافتتاح بعد الحصة الثالثة، وحضره جمع غفير من مرافقي سكان الأحساء وممن قدموا إليها من أماكن أخرى. لقد كان يومـًا مشهوداً»(١)، والمشهد دال على مساحة حضور الوطن في السردية من ناحية، ودال على وعي الكاتب بتسجيله أحداث الوطن ومناسباته التي عاصرها داخلة في سياق تجربته الإنسانية والوطنية.

---

(١) ثلاث سنوات في بلاد النخيل، ص ٨٤.

٢- ثقافة الوطن:

إذا كانت الثقافة في واحدة من معانيها ما يمارسه الإنسان في يومه من نشاط هو بالأساس خبرات مكتسبة ومتوارثة من الأجيال السابقة فإن سردية الدكتور حمد الدخيّل قد حملت من تفاصيل الثقافة المجتمعية في كونها تمثل جانبا كبيرا من سمات الشخصية الوطنية تلك الشخصية التي تتأسس على ما يمارسه أبناء المجتمع من عادات وتقاليد تحفظ للشخصية كيانها التاريخي والاجتماعي، وهو ما يتبلور في كثير من تفاصيل العلاقات على مستوى العمل والصداقة والأسرة والمجتمع، عبر دوائر تتداخل وتتماس وتتضافر لتكون بمثابة العتاد الاجتماعي لمنظومة القيم الاجتماعية.

يرصد الكاتب مساحات كبرى من أنظمة العلاقات وما تطرحه من قيم كالكرم وحسن الضيافة والاحترام المتبادل وحسن الجوار وممارسة الحياة اليومية وفق تقاليد المكان، وهو ما تطلب الكشف عن أساليب المعيشة وعلاقة الإنسان بالمكان، وقد رسم الكاتب عدة لوحات مكانية ترصد الطبيعة ونظام التعامل معها، كما تكشف عن وجه حضاري من وجوه المكان والبشر:

«في الأحساء لن تجد صعوبة في البحث عن مكان نزه تقضي فيه ساعات من نهار؛ فالنخيل ساحات مفتوحة لمن يريد أن يستمتع بجمال المكان والخضرة. والنسيم الرقيق وينابيع العيون أماكن نزهة مفضلة للرحلات القصيرة، ومغارة جبل القارة المشهور من الرموز السياحية في الأحساء، وأحياناً يفضل بعضهم الاستمتاع بمنظر الصحراء، فهناك الجبال الأربع (الأربعة)، التي تنتصب شامخة في طريق الأحساء - قطر، قامت أسرة المعهد برحلة غداء إليها يوم ٢٢/ ٢/ ١٣٩٢هـ الموافق ٦/ ٤/ ١٩٧٢م»[١].

(١) ثلاث سنوات في بلاد النخيل، ص ٦٧.

في سياق سردي قدم الكاتب طرحه لمساحة لها أهميتها في سياق تجربته الذاتية اكتنزت بخبراته وعلاقته مع الآخر في حركته بين أرجاء الوطن، وهو طرح يؤكد شخصية صاحبه ويكشف عن أبعاد شخصية علمية تعي دورها وتمنح الآخرين مساحة حضورهم بصورة تحقق ديمقراطية العالم ووعي الإنسان ومنهجية الباحث الأكاديمي وضمير المثقف.